المحاضرة الثانية: تاريخ علم الاجتماع

تمهيد:

الاعتراف الذي يحظى به اليوم "علم الاجتماع" في الأوساط الأكاديمية على الصعيد العالمي كتخصص علمي مستقل بذاته، هو نتاج مسار طويل ومعقد جدا من تاريخ الأفكار المتداولة حول المجتمع والحياة الاجتماعية منذ عهد الحضارات القديمة، والتي أسهمت من خلال كتابات مفكريها وتحليلاتهم في لفت الانتباه إلى الكثير من التفاصيل والوقائع الاجتماعية، وكذا طرح العديد من الأفكار المبكرة والتي سيتحول بعضها إلى طروحات ومفاهيم أساسية في مجال علم الاجتماع فيما بعد، كما سيتضح لنا ذلك في تفاصيل هذه المحاضرة.

أولا. في الفلسفات القديمة: شكلت الفلسفات القديمة المحطة الأولى في مسار تبلور التفكير الاجتماعي إزاء الكثير من المشكلات الاجتماعية وقضايا التغير التي كانت يعيش على وقعها الإنسان في تلك الحضارات، كما هو الحال بالنسبة للحضارات الشرقية (المصرية، الصينية والهندية)، والتي سبقت في وجودها الفلسفة الغربية ممثلة خاصة في الفلسفة اليونانية، والتي كانت أعمق في حضورها وأثرها على الفكر الإنساني.

1) في الحضارة الصينية: حفل الفكر الاجتماعي الصيني القديم بعدد هائل من المفكرين والمذاهب الذين تعرضوا من خلال كتاباتهم إلى جوانب مختلفة من حياة المجتمع الصيني، يتقدمهم المفكر الكبير **كونفوشيوس** (**551–478 ق.م**) والذي يرجع إليه الفضل في وضع المعالم الأولى للفلسفة الاجتماعية التي عرفت باسمه، والتي ظلت تتحكم في الحياة الصينية قرابة العشرين (20) قرنا، أي من القرن الأول قبل الميلاد حتى نهاية القرن التاسع عشر (19) بعد الميلاد. والتي حدد فيها مجموعة النظم الاجتماعية، ونوعية العلاقات والمعاملات التي يجب أن يتبعها الناس على أساس مجموعة من القيم الأخلاقية المثالية.

جهود **كونفوشيوس** لم تنحصر عند هذه الجزئية فقط، بل حاول أيضا تقديم اجابات وحلول للمشكلات التي واجهت التنظيم الاجتماعي الصيني في زمانه.

2) في الحضارة المصرية: تعرض قدماء المصريين خاصة رجال الدين منهم إلى العديد من القضايا ذات الصلة بالشأن الاجتماعي على غرار: **تحريم القتل والسرقة وأكل مال القاصر واليتيم والكذب والخداع والزنا**.. إلخ. كما مثل الفكر الديني المصري التطور المعروف اليوم لعلم الاجتماع الديني: والذي شهد الانتقال من عبادة الماديات إلى عبادة الروحانيات، ثم من التعداد الآلهة إلى وحدتها. حيث بدأ المصريون القدامى بعبادة مظاهر الطبيعة المادية لذاتها مثل: النيل والشمس وبعض الحيوانات ثم انتقلوا من ذلك إلى تقديس هذه الآلهة بوصفها رمزا لآلهة روحية، ثم أخيرا أحلوا الوحدة محل التعدد على إثر ثورة **إخناتون** وما سبقها من مقدمات.

اسهامات قدماء المصريين تجاوزت الشق الديني إلى المجال السياسي أيضا، حيث قدموا نظريات سياسية مثل نظرية "تقديس الملوك "، وكيف أن الملك هو ابن الله أو يمثله على الأرض أو من نسل الآلهة، وهي النظرية التي انتقلت لاحقا إلى الفكر اليوناني والمصري. كما تشير العديد من الشواهد إلى أن قدماء المصريين عرفوا أدق نظم الحكم، ووضعوا تشريعات اجتماعية واقتصادية وسياسية كثيرة.

3) في الحضارة الهندية: ارتبط الفكر الاجتماعي الهندي القديم بمجموعة من القيم الروحية الدينية التي تبلورت في نصوص وممارسات الديانات الأرضية مثل: قوانين **مانوا** والتي لعبت دورا كبيرا في تأكيد الطابع الروحي للحياة الاجتماعية في الهند القديمة، إلى جانب التركيز على تخليص الجسد من الماديات والشهوات والملذات. في الوقت الذي كانت فيه تعاليم الديانة البراهمية، تكرس الفصل بين طبقات النظام الاجتماعي الواحد، عبر وضع طبقة البراهما في سدة الهرم الطبقي، حيث تخضع لها الطبقات الأخرى باعتبارها طبقة مقدسة، كما لا يسمح بتدنيس هذه الطبقة من خلال الاختلاط بها سواء عن طريق الحراك الاجتماعي أو الزواج، إلى غير ذلك من التعاليم المفرطة في تقديس هذا المكون الاجتماعي. وذلك بخلاف ما تنص عليه تعاليم البودية والتي لا تزال تشكل طبيعة الحياة والعلاقات الاجتماعية في الهند حتى الوقت الحاضر. والتي حفلت بمجموعة من الأفكار التي تنبذ قيم الفردنة والمادية، وتؤكد على أهمية القيم الروحية والجماعية. إلى جانب القضاء على مظاهر التفرقة والتمييز بين الطوائف المختلفة من حيث الحقوق والواجبات، ووضع قواعد سلوكية عملية يجب الالتزام بها من طرف الأفراد، لكي يحيا حياة فاضلة مثل: مجاهدة النفس، التقشف، الزهد، نبذ الطبقية، المساواة بين البشر.

هذه القواعد كان لها تأثير كبير على أنماط السلوك وأساليب التفكير الاجتماعي في المجتمع الهندي.

4) الفلسفة اليونانية: تشكل الصورة الأولى للتفكير الإنساني المنظم، وفيها تبرز أهمية الفكر الاجتماعي كنتيجة لنمط الحياة العقلية التي كانت موجودة في هذه البلاد. وأبرز صور هذا الفكر نتلمسها في كتابات شخصيتي: **أفلاطون وأرسطو**.

أفلاطون (428–347 ق.م): يعد **أفلاطون** أحد أعظم رواد الفكر الفلسفي اليوناني، وذلك نتاج ما قدمه أراء (مثالية وواقعية) أثرت صفحات هذا الفكر، من بينها الكثير من التحاليل الاجتماعية والتي ضمنها واحد من أهم مؤلفاته وهو "الجمهورية". والذي قدم فيه تصوراته عن المجتمع البشري والفرد والأسرة والتنشئة الاجتماعية والأخلاقية والنظم السياسية والاقتصادية والتعليم واشباع الحاجات وتقسيم العمل والطبقات والمهن الاجتماعية والانتاج والتبادل والعلاقات الاجتماعية والروابط الاقتصادية.. على غرار أن المجتمع حاجة طبيعية، فالفرد لا يمكن أن يحيا إلا في مجتمع سواء كان هذا المجتمع هو الأسرة أو المدينة. وأن تطور المجتمعات من البساطة إلى التعقيد، وذلك بفضل نظام تقسيم العمل والتخصص الذي قاد المجتمع إلى

الاتجاه نحو تصدير الفائض لديه من سلع، واستيراد ما يحتاجه مما يدفعه نحو إقامة علاقات تبادل تجاري مع المجتمعات الأخرى.

أرسطو (384-323 ق.م): اتسمت أفكاره بالطابع الواقعي المميز، بل يعتبرها البعض بأنها أدق ما احتوته الفلسفة القديمة بوجه عام. ويعتبر كتابه "السياسة" والذي ضمنه معظم أرائه الفلسفية مدخلا هاما إلى دراسة الظواهر الاجتماعية. حيث لمس فيه أدق مسائل علم الاجتماع وعالجها منهجيا.

ومن أهم الأفكار الاجتماعية التي ضمنها **أرسطو** في عمله سالف الذكر، قوله بأن الإنسان مدني بطبعه، وأنه يستحيل على الإنسان أن يحيا ويعيش منفصلا عن المجتمع. تحليلات **أرسطو** لم تتوقف عند هذا الحد، بل امتدت أيضا إلى مجال الأسرة التي أقرها، منافيا في ذلك تصور أفلاطون والذي قام على نفيها عن طبقتي الجند والحكام.

كما توسع أيضا في تحليلاته إلى المجال السياسي، موضحا أن الدولة وجدت لتنظم حياة الناس في المجتمع وتشرف عليهم، وتطبق التشريعات بهدف تحقيق العدالة والمساواة. مصنفا في ذلك الحكومات إلى نوعين: حكومة صالحة وأخرى فاسدة.

5) في الحضارة الرومانية: تركز الاهتمام الأكبر للرومان حول التفكير القانوني، لذلك لم يكرسوا جهودهم للتفكير الفلسفي والاجتماعي، وأن كل ما فعلوه هو تكييف الفلسفة اليونانية لتناسب ظروفهم أو لتخدمهم في تطوير القانون والنظام السياسي، لذلك لم يكن لهم شان في ابتكار نظريات فلسفية جديدة عن الدولة أو المجتمع.

ومن أهم الأفكار الاجتماعية التي تم تداولها في هذه المرحلة نذكر تأكيدهم على أن الانسان اجتماعي بالفطرة، لذلك فإن المجتمع الإنساني طبيعيا بدوره. كما أن الاصلاح الاجتماعي غير مهم، وخير للإنسان أن يبحث عن صالحه الحقيقي في الحياة الأخرة، لأن إصلاح الحياة الأرضية الأن ليست هدفا ينبغي أن يسعى إليه الفرد في حياته القصيرة.

ثانيا. في العصور الوسطى: ويندرج تحت هذا العنوان عالمين مختلفين الأول مسيحي والثاني عربي مسلم، واللذان كانا يعيشان واقع فكري غاية في التناقض، بشكل يعكس شساعة التباين القائم بينهما في هذا المجال.

1) في العالم المسيحي: تعد العصور الوسطى حقبة شهدت سطوة الكنيسة على مفاصل الحياة الاجتماعية في أوربا، الأمر الذي تسبب في انحصار التفكير الاجتماعي، جراء التضييق الذي تشهدها كل محاولات الإبداع الإنساني، ما جعلها مقتصرة على اسهامات القساوسة ورجال الدين فقط.

القديس أوجستين (354-435م): كتب القديس **أوجستين** مؤلفه المسمى "مدينة الآلهة" في عصر من أقسى العصور في تاريخ الإنسانية[*]. هذا المؤلف يبرز لنا صورة جامعة للحضارة في العصور القديمة، وكذلك

[*]. حيث كان لسقوط مدينة روما وتدميرها وقع في نفوس الذين عرفوها وخبروا ما فيها.

نظرة إجمالية على تاريخ روما. أما من الوجهة الاجتماعية البحتة، فنجد في هذا المؤلف عددا من التحليلات والأفكار التي تعتبر دعامة قوية للمفاهيم القضائية والاجتماعية الحديثة، فلقد عرضت ونوقشت فيه كل الآراء التي أدت دورا هاما في حياتنا الاجتماعية فيما بعد. ومن أبرز هذه الأفكار نذكر ما يلي:

أ) المجتمع البشري ليس حشدا من البشر، ولكن يقوم على فكرة اتحادهم في العاطفة والمعتقد، ويؤدي هذا الاتحاد إلى جعلهم في وحدة معنوية واحدة.

ب) ناقش أيضا أهمية "القانون الوضعي"، نظرا لأن البشر لا يمكن أن يعيشوا دون ارتكاب خطايا، لذا وجب على السلطات العلمانية (الدنيوية) الحد من الخطايا وتوقيع الجزاء على من ارتكبها.

ت) كما حلل العديد من القضايا التي تركز على المساواة والإخاء والعدالة الاجتماعية.

القديس سانت توماس الإكويني (1225–1274م): أكد على العديد من الأفكار الواقعية التي وجد لها صدى سابق في الفكر اليوناني القديم، على غرار ما يلي:

أ) المجتمع في نظره مجموعة من الأفراد الذين تجمعهم المعاشرة المشتركة والخضوع المشترك لمجموعة قوانين يجب أن تحقق العدالة.

ب) الحكومة هي القوة التنظيمية في المجتمع، وهي ضرورة اجتماعية تؤدي دور النفس في الجسد البشري، فالحكومة تعمل على سلامة واستقرار المجتمع، ووسيلة ذلك هي:

- التشريع المنظم للعلاقات والمساواة الاجتماعية.
- الوقاية من العدوان الخارجي.

2) **في العالم العربي الاسلامي**: مثلت جهود الفلاسفة والمفكرين العرب المسلمين محطة هامة في مسار تطور التفكير الاجتماعي في العالم، وذلك من خلال الاضافات المعتبرة التي قدمت في هذا الإطار من قبل **الفارابي وابن سينا والمقريزي** وأخرون كثيرون غيرهم، والتي أسهمت في تعزيز هذا التفكير والدفع به إلى الأمام، كما سيتضح معنا في التفصيل الآتي.

أبو نصر الفارابي (872–950م): ضمن **الفارابي** أفكاره في كتابيه: "السياسة المدنية" و"أهل المدينة الفاضلة"، حيث أبان فيهما عن:

أ– اهتمام كبير بالنواحي الاجتماعية وحاجة الإنسان إلى العيش في جماعات ومع الأخرين.

ب– ضرورة التعاون لسد وإشباع حاجاته من أجل العيش والحياة.

ت– قسم المجتمعات الإنسانية إلى قسمين كبيرين، الأول وهو المجتمعات الكاملة، والثاني هو المجتمعات غير الكاملة.

ث– كما حلل أيضا طبيعة الطبقات الاجتماعية ونوعية المهن ونظم القيادة.. إلخ

ابن سينا (980-1037): يعد واحد من أشهر مفكري عصره، ويمكن تلمس معظم أرائه في كتابه "الشفاء"، والذي كشف فيه عن عديد الأفكار ذات الامتداد الاجتماعي، والتي من جملتها نورد الآتي:

أ) يرى وجود اختلاف بين حياة الانسان والحيوان، فالحيوان يحيا حياة غريزية طبيعية، بينما يحيا الإنسان حياة اجتماعية تتميز بالتفكير، ويحتاج لإشباع حاجات كثيرة، وذلك ما يستوجب تعاون أفراده، وهو التعاون الذي يعتمد على تفاوت كفاءات الأفراد، وهو ما يعبر عن حكمة إلهية، وعليه يقوم التخصص وتقسيم العمل الاجتماعي..

ت) أما التفاضل الاجتماعي فهو أيضا نعمة إلهية، مفادها أن البشر لو كانوا فئة واحدة متساوية كأن يكونوا فقراء جميعا أو أغنياء جميعا، لكان التنافس بينهم محدودا في إطار ضيق، لكن تفاضلهم وتبايناهم يعطي لكل منهم دور يسهم به في استمرار بقاء وتطور الحياة الاجتماعية، فالحياة لا تستقيم بالتشابه.

ب) كما تناول بعض المشكلات الاجتماعية التي كانت سائدة في عصره وهي القمار والسرقة والربا..

ثالثا. عصر الإصلاح والتنوير: وتمثل هذه المرحلة نهاية سطوة الكنيسة على تفاصيل الحياة العامة، ورفع الحجر الذي كان مضروب على كل أشكال التفكير الإنساني، وتحرير المبادرات وتشجيع الاجتهاد في شتى الميادين الحياتية، والذي كان من ثماره ما قدمه كل من: **مونسكيو، هيجل، ايمانويل كنت** وأخرون كثيرون غيرهم، والذين قدموا العديد من الأفكار التي سنتبين بعضها في هذا التناول.

1) مونتسكيو (1689-1755م): يعد **مونتسكيو** أحد أفراد مدرسة التطور الاجتماعي التي ظهرت في القرن الثامن (18) عشر، ويعتبر مؤلفه الشهير "روح القوانين" أحد أفضل المؤلفات التي وضعت في دراسة الفكر السوسيولوجي. ومن أهم الأفكار التي شكلت جوهر فكر مونتسكيو نذكر ما يلي:

- ركز على أهمية دراسة تاريخ الشعوب دون الاهتمام بدراسة التاريخ، لأن تاريخ الشعوب يسمح بتحليل كل البناءات والنظم الاجتماعية وكيفية تطورها عير العصور.
- كما أهتم أيضا بدراسة الأبعاد الايكولوجية والمناخ وطبيعة النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للمجتمعات البشرية.
- ركز على دراسة بعد السكان في إحداث التغير الاجتماعي
- تحديد طبيعة ومعالم القانون وتأثيره على الأفراد والجماعات والحياة الاجتماعية ككل. كما درس أيضا السياسة والاقتصاد وغيرها من العوامل التي تفسر الظواهر الاجتماعية.

2) ايمانويل كنت (1724-1804م): لم تتسم كتابات **ايمانويل كنت** بالطابع الوصفي أو التحليلي فقط، ولكنها ركزت على الجانب النقدي أيضا. لذا فهو يعتبر اليوم من أبرز علماء الاجتماع الذين أرسوا قواعد الاتجاه النقدي في دراسة الواقع الاجتماعي.

كما أهتم بظاهرة الصراع عند تحليله لأبعاد وأسباب ظهور الحضارات الإنسانية. وأشارت كتاباته كثيرا إلى عمليات التعاون، التقدم، التغير، التطور.. ولا سيما تطور كل من الأفراد والجماعات والأسباب التي تؤدي إلى ظهور التطور واستمراريته. بالإضافة إلى ذلك، وضع **كنت** مجموعة من القوانين والقواعد التي تحدد عمليات التطور سواء بالنسبة للأفراد أو المجتمعات مستخدما في ذلك مجموعة من الأبعاد الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية، وحتى النفسية.

3) فريدريك هيجل (1770-1831): يعد أحد عمالقة الفلسفة ألمانية، والذي تصنف أعماله وأفكاره ضمن فلسفة التاريخ، وهي التي مهدت لظهور علم الاجتماع مع أواخر القرن التاسع (19) عشر. والتي من أبرزها نذكر ما يلي:

- عمليات التغير أو إحداث تغيرات في التاريخ الحاضر أو الماضي هي نتاج عن إرادة الإنسان.
- درس المجتمع الديني وكيفية تطوره، كما درس فكرة الدولة والفن والقانون والأخلاق والإدراك والشعور والابداع.
- استخدم النهج الجدلي في دراسة الواقع وتفسير الحقائق ودراسة النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.
- تعتبر تحليلته عن التاريخ الاجتماعي للحضارات والشعوب إضافة سوسيولوجية هامة، لا سيما عند تقسيمه التاريخ البشري إلى أحقاب تاريخية هامة، وهي: حقبة العالم الشرقي، الحضارة اليونانية الرومانية، والحضارة الألمانية الأوربية.

رابعا. المراجع المستخدمة في المحاضرة:

1) أحمد رأفت عبد الجواد: **مبادئ علم الاجتماع**، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة.

2) نجلاء عبد الحميد راتب: **مدخل إلى علم الاجتماع**، جامعة بنها.

3) عبد الله محمد عبد الرحمن: **علم الاجتماع: النشأة والتطور**، دار المعرفة الجامعية.

4) عبد الهادي محمد والي: **تاريخ التفكير الاجتماعي**، 2005.

5) جاستون بوتول: **تاريخ علم الاجتماع**، تر. غنيم عبدون، الدار القومية للطباعة والنشر.

6) جميل حمداوي: **أسس علم الاجتماع**، الطبعة الأولى، 2015.